ديوان من لبنان

« الرأس المقطوع » بقلم أنسي الحاج . دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٦٣

اطلق انسي الحاج « لن » شعرا غير مكتمل ، حمل لنا تنفسا انسانياً طيباً وفصل بين عصر المجاملة وعصر المغامرة . فانسي الحاج صياد يطارد وهو مطارد ، فيتعرض ويعرض ويضيع . فمهما حاول الشاعر – الصياد ان يتفلت وينسلخ فسيشعر بالقيود تطارده ، ولا ترتفع قيمة الشاعر بقدر ما يدمر فحسب بل يقدر ما ينسجم مع مبتكراته واللغة التي مولها واعطاها ترابه لتفرخ .

ما يهمني هو البحث عن الشعر في مجموعتي « لن » و « الرأس المقطوع » . بدأ انسي الحاج في « لن » يسلك خيطاً مشمعاً ، وتأرجح بين تراكم الالفاظ غير المنسجمة مع ما اراد ان يسكبه وبين السرد الوصفي (الذي حذرنا منه في مقدمته) الذي لا يحمل قوى شعرية متألقة .

الحصاد الشعري في « لن » ضئيل ، وفجأة نجد اعشاباً غريبة . « انت اين يا لذة اللعنة » نداء غدير منزو لقافلة الظماة العابرين ، لا شفيع له سوى حسّ داخلي مبهم « اناديك ايها الشبح الاجرد » فيتدفق الغدير ويستوعب العالم : « اهرب اين وانا الافق ؟ » ويتجه العالم نحوه ، انه مستقبله، لكن « الارض تنزل بلا عتبة » . النداء الضائع محمول الى المقبرة ، فتنضح اثمار المأساة و « تمطر فوق البحر ، لم يعد في العالم دمعة » .

وبصوت النبي الصاعد من اكفان العصور ، العائد الى بحيرة العالم الراكدة ، ينفخ انسي الحاج على البحيرة وينضب النبع . وبلهجة النبي الحزين يدلنا على النبع ، على المرأة : « ايها المنتظرون لانضج اسفهكم بهذا النبع فهو اميركم » . ويخط على بحيرة العالم الغريقة شارة يأسه ونشيج الاخر في دمه : « على اصفى اراضيكم اشك يأسي » . وكالنبي العالم الغيب يستطلع الغمامة التي نسجتها البحيرة ويفضح باطلها « وغداً تقولون : اعماه شعرها الطويل . والليلة افضح باطلكم » .

النبي التائه لم تسمع كلماته ، لم تتوهج ينابيعه على صخور المنفى ، فينحني بوجهه الاسمر وكلماته السمراء . لم يعد لهمكان فليقتله القائد: «قائدي ، يا قائدي نيشني ! » وليبقى طائراً دونما معبد يبعد النبع وينتظره ، يبحث عنه وعندما يراه يختبىء . لكنه في قصيدة الوداع « يهرب هدفه ويصل قبله » . ومع نبع الجنس الصاخب ، يوقد انسي الحاج نار نبوته الجنسية وينهي سلالة المجد القديم ، ليبدأ مجد الجنس سيد المعارك وبئر التوحد والحلولية : « فرخي كثيراً لتوحدك جميع الاقاليم وانا حي » .

ووقفة مسيحية جديدة تجسد الانسان الذي يأكل جسمه (اذ ان الرفض المستمر يأكل الجسد وينثره) . لكن انسي الحاج نبي الرفض يعود فيحشو جسده ندما فيحيا . وطالما ان حياتنا لا تمنحنا هدأة ولا احلامنا افقاً ولا نبعنا غداً بلا يأس ، يدفعنا الشاعر الى التوحد مع الجماد لامتلاك صمته ونومه : « الحمني بك ايها الجبل ... خذ صمتي ايها الجبل ... »

والجبل يرفض التوحد مع الانسان ، فيعود هذا الكائن المرتبك ابدا الى النبع ليقعد فيه ويستريح ، ليبدأ فيه : «لحظة الجثك الى حبي اقلب اللحظة ، في وجهها الاخر اتسع ، استريح ، لوجهها الاخر فجوة اقعد فيها لابدأ » . ويترك الفجوة ومعه نبعه بلا ماء وجراح ، راحلا الى الفسحة الكبيرة حيث ينعدم الطقس وتبرأ اللفظة:

واذا كان الرمز غيباً، فشاعر نافض قباقم الرموز وكشف وجه النبع وسلكه بل سار فيه : « اسير فيك ... انا الجلوس . تلفظ افكار الدوار » . وهو الذي خطط لهذا الجلوس المضطرب وتعبد له : « الرمز غيب وسرتك تغيب العالم كدوار الماء » . وهذا الدوار بلا اسم ، انه فيه يكتمل وينضج ولن يسميه حتى لا ينساه ، وحتى لا يأخذ صفة الخارج باشيائه الممزقة ، وحتى يبقى حذر المستقبل الذي نسكن فيه وثقل الماضي الواضح الذي لا يتركنا. وانسي الحاج يريد ان يسجن حبيبته ، ومع ذلك فهو خائف من الوقوع في السجن دونما نجاة : فيلجأ الى صرة الحب حيث يرفض ان يزيح الباب عن قلبه وتغدو شفتاه شفة : « بر دهر عميق ثم ارفع فمك وثمر هنيهة ، مقيد في صرة لا ازيح البـاب عن قلبي . شفتاي شفة ». ويبحر ، عيناه قلوعه وبحره امرأته والمزج الكلي لا يصير ، انه مأخوذ فقط : «هرعت وراه ممحاة ، لقيت بحرك يعلو واعلو ولا يتصني» . والنبع يسقي تراب الليل وشرفات الفجر ، شرره يضيع ، فيبتهل انسي الحاج بغنائية يائسة طالباً صون النبع ليضيء به ويزهـر برعشته : « صن ياشرر الفجر ليل عينها لي» ...«احبها يافجر وابق جسمها لامعاً لاضيء » ... « عرّي قدمك لأزهر بالرعشة » . وللنبع صلاة اخرى ترتجف لتمتلك امطاراً لسنبلة يابسة . ومأخوذ دائماً بلا يقـين ليمتلك، ليزدوج ويتوحد ؛ ان نبعه فيه : «جسدي امرأتي » ... « لا احبك لان لا عمل يقدر ان ينقل حبي لك ». ويعطيه المنفى قشة البحر وعليها يعلق ويطير ليلوح من منفـاه ، لعدوّه الحب . ويدعوه ان لا يتوقف؛ وينتظرها في وطنها (مذبحته) وهي قربه يبعدها الصغير . ايوجّه الريح وهي مذريته ؟ لو يبقى في النبـع ، لو يصب فيه ولا يخرج حيث يصير العاشق والمعشوق واحداً : « آه لو اطلع من توتري كقارة من البحر ، ونيئاً اصب في عينيك » . ان نبعـه الابدي « ينقي هواء الاوياف الحضال ، يطير ويصنع القماقم » . والسجن ينهمر من النبع لكنه سيتركه ، لم يعد مرماه ، سيتمر على طريقته الخاصة ، بحرية الهذيان ، ويسقط بلا ريش ينعاه الى الريح . رفض الخارج لانه يشرب النبـع ، ورفض الله لانه لا يصون سر النبـع ، فحمل نبعه وحار : « من شرفة الى شرفة، وقارة الى قارة ، الوذ بك في حجرة واحار بين اوصافي » . وكالسمكة تنط حبيبته ويفقدها لانها تكر ابداً ولن تعود . وكلما احب شيئاً فقده ، وقع من قطاره اللانهائي : «المساكين ! كلما احببتهم وقعوا من القطار » .

وتتم صوفية انسي الحاج ذات المظاهر الحلولية العميقة ، وبصوت النبي المنعزل ينشد : « كنت انظر قاراني ، صرت اراك ... انظر حولي فلا ارى غير عيني ... اعقف عيني الى داخلي فأرى وحدهما عينيك ... قارّتك عينك ، اطلب الرزق في سنابكها فأرتطم بوجهي وارادتي » . وبلهجة صوفية خالصة يتجـه الى النبع ، مرتبكا كيف يصيره : « كيف اصبح التراب لأرافق خطواتك، اعدها وفي يوم ممطر اصير وحلاً فألوثك ، وفي اليابس أعلق غباراً بعينيك ، آخذ دمعة اثر دمعة من عينيك ، اعدو على ثيابك من عاداتك ، انتقل اليك » . ويائساً يتمتم : « ايه التراب يستطيـع ». اخيراً يرفض النبـع ، فهو زبده لا سببه ، منفاه لا لقاؤه : « انت ! الفناء يافناء انا الفناء ، انك زبدي لا سببي ... ارخيتني اغرق ، اتعمر على طريقتي ، ارثي ابذله وارفعه . حكمة هذياني: لن».

مع « الرأس المقطوع » تخف الحمى الشعرية وتكاد تنعدم المادة الشعرية ويخف التوتر المتألق. غير ان اللفظة هنا اكثر نعومة والصورة اخذت منحى جديداً مشابهاً ، الى حد ما ، لما اعتبرته شعراً حقيقياً في « لن » واشرت اليه .

بعد الطوفان وغسل العالم العفن يعود الغلام الجديد ، بعـد ان عاف النبوة ليشعل « لفافة الاستمناء الكبيرة » . فيتجاوز رفات الصباح ، وكالصيادين يتسع ودماؤه منفية اليه والنمل الخارجي يتوصده . تخلص من منفاه الجنسي واعلن غـد

السرطان : الحرية. وها هو بينه وبين الخنزير هوة لا تشدهما والجنس طروادة . الجنس حرب والخنزير لا ينفجر. ويوم القيامة يخرج من الجثة : « فطريق الوطواط واضح » . هو والله والموت سيخرجون من الجثة . ومن ثم الى اين ؟ ما قيمة الخروج من الجثة ؟ انه سيرى شعوب الارض فقط دونما معنى او هدف . والسهم يشير الى الفراغ وعلى الصيادين ان ينتهوا في الفراغ ، فصديقه يتناسل ولطخة انتقامه تأكله . وهو صامت و«لن يستنجد ضد ما يجهل » و « نجمة البلد الابدي ... اكثر حقيقة من صوت المرآة الآخر ، انقى من غريق ملاك » و «تغوص النجمة في شيء ما يحملها واتبعها لنتحد ، وسراً بصمت عال تدخل اخبارنا المقفلة ، تخرج من الطرق ، نقطعها بثلوج الشمس الحمراء » . والموت طروادة ! الموت : نجمة البلد الابدي تعيده الى المرأة اخيراً: «اسكتيني يامن تزينها قشعريرتي ولينطلق عرسنا من الابواب الاخرى . اطفئي كل بريق في عيني ولا يبقى غير بحرك يحلم بيدي المعميتين ، اجراس لذته المجنونة » . لكن النهر جرفه ولم تروه المرأة وها هو في العيون جالس يغنيها اغنيته ، فيدحرج وجهه ولا تراه . فما نفع العالم باغنياته واعشابه ما دام الانسان مضطراً ان يستعير شفته واذنه ليصنع عشاقه ؟ ان انسي الحاج يتمم خطته في «لن» حيث رفض ان يستعير الخارج بل ان يحل في مستودع يستقطبه ، يبقاه ويحييه ، واخيراً اكتشف استحالة ما يرغب : فقد وقف الاخرون يرمقون ميتته ويسحبون شعرهم من القيظ. وبعد ان صفا وهدأ يأمر النبع ان يمر : « مري، ليس في الروح احد ». والحب لا يعشب فهو عينان مهملتان في القلب: فعاد ليعترف ان احاديثه ارصفة شتوية : « والرقص يحتاج الى اثنين وانا اعانق شخصاً لكنه مات على الجبل » . ورغم ما عبر وما رغب فهو ما زال على اتصال بالحلم المستحيل : «لو مرة كنت فراشة تخترق الاسود والحريق تخترق الجوزة والفراشة » .

ويدور العالم « وتنزل المقصلة حاملة اريجها »، « الامواج الغاصبة على الصخور مغتصبة »، «سمعت فيك انهياري ومت — كل سحابة ماتت » .

نقد واسطورة من السودان

« دراسات في شعر التجاني » لجماعة الادب السوداني . الخرطوم ، ١٩٦٣
« حياة تاجوج والمحلق » بقلم محمد صالح ضرار . الخرطوم ، ١٩٦٣

في مقدمة كتاب « دراسات في شعر التجاني » الذي اصدرته جماعة الادب السوداني بمناسبة المهرجان الذي أقيم للشاعر التجاني يوسف بشير بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاته ، يقول الناشر : «من اكبر مشاكل الادب في بلادنا هذه الانصرافية عن تراثنا الادبي في اشكاله كلها . فنحن نؤمن بأن السمات النفسية والخصائص المميزة لامتنا تترسب بشكل حتمي في آدابها الدارجة والفصيحة». بهذه النظرة الواعية المثقفة تفتتح جماعة الادب السوداني اول اعمالها نحو تحقيق غايتها النبيلة في التعريف بالتراث السوداني وازالة ما علق عليه من غبار الاهمال واللامبالاة .

وجماعة الادب السوداني واحدة من عديد من الجمعيات الادبية التي انبثقت في الاونة الاخيرة في السودان والتي تهدف الى تنشيط الحركة الادبية واحياء التراث الثقافي في السودان . ولقد ادركت جماعة الادب السوداني ان نقطة البدء في تركيز دعائم الادب السوداني وتنشيطه تستلزم العودة الى